الحركة الفكرية على عهد بني زيان
(633هـ-957هـ)

أ. دالي يوسف عثمان
جامعة بلعباس

المـــقـــدمـــــة:

إن الباحث في موضوع التصوف وطرقه و شخصياته يلاحظ أن الدارسين اهتموا بما ظهر من طرق صوفية في بلاد المشرق، فعرفوا بمؤسسيها غير أنهم غفلوا أو تغافلوا عن كنوز منسية في بلاد المغرب، حتى نكاد نقول بأن موضوع التصوف في هذه الرقعة من العالم الإسلامي لا يزال بكرا و يحتاج إلى من يميط اللثام عن هذه الذخيرة، ويكشف عن الشخصيات الصوفية التي ساهمت بقسط كبير في انتشار التصوف في هذه البلاد، ومن هذه الشخصيات نذكر أبا مدين شعيب الذي تنسب له الطريقة المدينية في التصوف، والذي عبر عن مذهبه الصوفي السني الأشعري في عدد من مصنفاته النثرية و قصائده الشعرية.

وكان اختياري على دراسة هذه الشخصية أنها تركت آثار في بلاد الأندلس و المغرب والمشرق بما أمدته من تعاليم صوفية في القرن السادس الهجري، الذي نشر آراء التصوف في كل من مدينة بجاية وتلمسان و كان له تأثير في فكر محي الدين بن عربي و تصوفه.

تأثير أبي مدين في فكر محي الدين بن عربي و تصوفه:

1. قيمة بجاية في تصوف أبي مدين:

إن من أبرز الشخصيات التي حملت لواء التصوف كتجربة عملية تتداولها الألسنة وتحار فيها العقول وكأفكار فلسفية كشفية مغايرة للنظر الفلسفي العقلي، وكذلك كحقائق دينية أرادت الاهتمام بالباطن وبالروح وتجاوز الجوانب العملية الفرعية (الفقهية) التي يختص بها أهل الظاهر كما هو في اصطلاح الصوفية.

"**أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي**"[1] (520-594هـ/ 1123-1197م) درس التصوف النظري من خلال كتاب "**الأحياء للغزالي**" و"**الرعاية**" للحارث المحاسبي علي يد "**ابن حرزهم**"[2](ت559هـ /1165م) أما ممارسة التصوف فتلقاها على يد "**محمد الدقاق**"، ولكن ابرز مشايخه من المتصوفة الذين تركوا بصماتهم عليه: "**أبو يعزي بلنور بن ميمون**" (ت572هـ) وعن مكانة هذا الشيخ الصوفي البربري ومكانة الغزالي يقول أبو مدين: "طلعت أخبار الأولياء من "**أويس القرني**" إلى زماننا فما رأيت مثل الشيخ "**أبي يعزي**"، وطالعت كتب التذكير، فما رأيت مثل كتاب "**الأحياء**"[3].

في هذا القول لأبي مدين يبدو بوضوح المصدر النظري لتصوفه مثلا في كتاب "**إحياء علوم الدين**" للغزالي كما يبدو النموذج العملي المهتدي به مجسدا في شيخه "**أبي يعزي**" فمن هذين المصدرين (النظري والعملي) درس أبو مدين التصوف في المغرب الإسلامي ليرحل بعد ذلك إلى المشرق قاصدا الحج، وهناك يتلقى بالشيخ عبد القادر الجيلالي[4] الذي أثرى تجربته الصوفية، وزادته دراسة الحديث على يده ثقافة نصية دعم و برر بها كشوفاته بحجج قوية مقنعة وعند عودته إلى المغرب قرر أبو مدين وضع حد لتجواله فوقع اختياره على مدينة بجاية موطنا له ومنطلقا لمراجعة نحو أعلى درجات التصوف على الإطلاق.

لم يكن اختياره لبجاية عفويا أو بمحض الصدفة وإنما منطقة بجاية هي أيضا مؤهلة اجتماعيا وطبيعيا لممارسة التصوف، فسكانها عرف عنهم منذ القدم الاهتمام بالنواحي الروحية[5]، كما أن طبيعة بجاية وجمالها الساحر يدفعان إلى التأمل العقلي والباطني ويعطيان للخيال فسحة التحرر من قيود العقل ومن قيود العبارة المنسجمة منطقيا، وكل هذا يساعد على العزلة والخلوات، لأن صاحب العزلة والخلوة في مثل جبال بجاية وسواحلها وما تضمه من كائنات، يجد في حياته التأملية الغنية عن الناس لفترات زمنية طويلة تساعده على نيل الأموال و التنقل عبر المقامات التي توصله إلى المراد الصوفي، هي الأحوال

التي قصدها بقوله :" مدينة معينة على طلب الحال "، لقد كانت مدينة بجاية إذن محطة هامة في التصوف بالمغرب الإسلامي حيث كانت تعج بالمتصوفة [6].

وابن عربي بالرغم من عدم استقرار بها إلا أنها بالنسبة له محطة هامة في تصوفه حيث دخلها سنة 597هـ، وبها بشر برؤيا أنه سينال أكبر درجات التصوف، وبأنه سيتلقى كشفا علوما وأسرارا إلهية لم يسبق إليها.[7]

2. أبو مدين شيخ الشيوخ و ابن عربي سلطان العارفين:

لقد كان تأثير أبي مدين في فكر وتصوف قويا بالرغم من أن الرجلين لم يلتقيا وهذا خلاف لما ذهب إليه "**بلاثيوس**" من أن هناك احتمال وقوع اللقاء بينهما لما زار ابن عربي تونس سنة 590 هـ لابد و أن يكون قد مر ببجاية حيث أبي مدين [8] ولكن عندما نقرأ مؤلفات ابن عربي التي يتردد اسم أبي مدين في جلها، إن لم نقل في كلها.لا نجد الإشارة إلى اللقاء بالرغم من أن أبي عربي يدقق في ذكر تفاصيل لقاءات بأصحاب أبي مدين و بتلامذته و بغيرهم من المتصوفة خاصة متصوفة المغرب الإسلامي، مما جعل من مؤلفاته مرجعا مهما في التعريف بأسماء أعلام كثيرة خاصة كتابه "**روح القدس**" و الدليل القاطع الذي يمكن الجزم من خلاله بنفي احتمال أن يكون ابن عربي قد التقى فعلا بأبي مدين بالرغم من الرغبة الملحة في ذلك هو ما جاء في رسالة " **روح القدس** " المؤلفة سنة 600 هـ أي يعد حوالي أربع سنوات من وفاة أبي مدين، حيث يروي واقعة التقائه بأحد أصحاب أبي مدين هي واقعة من طرق العوائد (الكرامات) التي كلما ذكر أبو مدين إلا وذكرت له كرامة في هذه الواقعة سواء صدقنا بطرق العادة فيها أولم نصدق يستنتج منها بوضوح أن ابن عربي لم يلتق بأبي مدين إلا من حيث الرؤى و الكشوفات و التجليات وهو ما عبر عنه بلقاء الأرواح، يقول ابن العربي في هذا الصدد :" تعدت بعد صلاة المغرب بمنزلي بإشبيلية في حياة الشيخ أبي مدين و تمنيت أن لو اجتمعت به، و الشيخ في ذلك الزمان ببجاية.. دخل علي :" أبو عمران فسلم ..وقلت من أين ؟ فقال من عند الشيخ أبي مدين من بجاية، قلت متى عهدك به؟ قال صليت معه هذا المغرب، فرد وجهه إلي و قال، إن محمد بن العربي باشبيلية خطر له كذا وكذا فسر إليه الساعة واخبره عني بكذا و كذا، وذكر لي من رغبتي في لقاء

الشيخ و قال لي يقول لك أما الاجتماع بالأرواح فقد صح و أما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكن خاطرك و الموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته.[9]

إن هذا النص الأكبري وغيره من النصوص، سواء صدقنا فيها بالكرامة أو نصدق، يصرح فيها ابن عزبي بولعه بشيخه وبرغبة ملحة في لقاءه، وهو من جملة ما يثبت أكثر علاقة التأثير الواضحة للشيخ أبي مدين في فكر وتصوف محي الدين أبي عربي، وعلاقة التأثير و التأثر هذه قد ندركها لأول وهلة نعلم فيها أن أشهر الألقاب التي كني بها الرجلان هي من وضعها الواحد للآخر، فأبو مدين لقبه ابن عزبي "**شيخ الشيوخ**" [10] وابن عربي لقبه أبو مدين بـــ: "**سلطان العارفين**" [11]و لقب كل منهما مجسد على أرض الواقع حيث كان كل منهما اسما على مسمى. فأبو مدين عرف عنه تربية المربين وتكوين المشايخ لا مجرد المريدين الذين يمارسون التصوف لذواتهم فلقد تخرج من مدرسته بمسجد "**أبي زكرياء**" بحومة اللؤلؤة ببجاية قرابة الألف شيخ ممن بلغ في التصوف درجات عليا مكنتهم من "**الكرامات**"و بقيت بركات شيخهم ترافقهم حيث ارتحلوا[12].

أما ابن عربي فلقد جسد وبجدارة جلوسه على عرش المتصوفة نظرا لما حازه من علم الباطن علما وممارسته أو حقيقة وطريقة، حيث خلق في التـــصوف تواليف عدت بالمئات[13] من أهمها "**الفتوحات المكية**" الذي كتب على نمط "**الأحياء**" و"**قوت القلوب**" لكن بإضافات كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها وكذلك "**فصوص الحكم**" وكتبا ورسائل كثيرة ألفها في مشرق الإسلام و في مغربه وهي جميعا مؤلفات تحمل مواقف فلسفية وآراء كلامية وفوق كل هذا تروي تجربة صوفية من بداية الطريق إلى غاية الوصول فالرجوع بتعبير صوفي كما أنها تجربة توخت ممارسة أبي مدين كنموذج للسالك الذي بلغ أقصى درجات العرفان.

يضاف إلى كل هذا النصوص الاكبرية الصريحة التي تقر بأن أبا مدين شيخه وسيده وقدوته في التصوف، بل و مفخرته في الشرق حيث يستشهد

بأقواله ويتباهى بكشوفاته وكراماته وفيما يلي نماذج من أوجه هذا الأثر الشديد لأبي مدين على ابن عربي.

3. نماذج من الأثر الفلسفي الصوفي لأبي مدين على أبي عربي:

أ- من حيث مبحث الأخلاق:

مما ينسب من حكم لأبي مدين قوله: "لا ينفع مع الكبر عمل، ولا يضر مع التواضع بطالة[14] واضح هنا أن هذه العبارة مقتبسة من المقولة المشهورة للمرجئة، لا يضر مع الإيمان معصية و لا ينفع مع الكفر طاعة" ويفهم من هذه المقولة لأبي مدين أن الرجل كان مطلقا على الصراعات الكلامية و على آراء الفرق في المسائل العقدية، كمسألة الكفر و الإيمان و عناصرهما و لكنه حول رسم هذه العبارة من محتواها العقدي و أعطاها بعدا أخلاقيا سلوكيا واضحا، فبدلا من تحديد ماهية الإيمان، هل هو كما قالت به المرجئة بأنه مجرد اعتقاد حال من العمل، أو العمل مؤجل ومرجئ عن الإيمان ؟ أم أن الإيمان هو مطابقة العمل للاعتقاد كما ذهب إلى ذلك المعتزلة والاباضية.

لقد خرج أبو مدين بهذه المقولة من إشكالها العقدي ليعطيها صبغة أخلاقية واضحة تتماشى ونزعته الصوفية المركزة على النواحي الأخلاقية في الإنسان، فرأي بأن المرء إذا تخلق بالكبر حبطت كل أعماله وتهافت كل ما يدعيه من اعتماد.

وإذا تحلى بالتواضع فقد حاز على الشطر الأكبر من الأعمال الصالحة حتى ولو قصر في البعض منها، وهذه الأعمال الصالحة تعكس دون شك اعتمادا سليما في نظر أبي مدين، لقد أراد أبو مدين بهذه المقولة التركيز على الأخلاق في التصوف وهو الأمر الذي يفسره ويؤيده ابن عربي عندما يعرف التصوف يقوله: "إتيان مكارم الأخلاق و تجنب سفسافها"[15] وهو تعريف يتفق مع من جاء في "**الرسالة القشيرية** "حيث حدد مفهوم التصوف بأنه :" خلق، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك في الصفاء [16]و أعظم الخلق على الإطلاق و الذي يجب التحلي بها هي الخلق الإلهية التي وردت في القرآن واتصف بها الرسول (ص) ما حددت ذلك عائشة (رضي الله عنها) عندما سئلت عن خلقه بقولها :"**كان خلقه القرآن**"[17] ولهذا يقول ابن عربي في تعريف آخر للتصوف بأنه "**الوقوف**

مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا، وهي الخلق الإلهية"[18] ويستدل في حديثه عن علاقة الأخلاق بالقرآن بقول لأبي مدين يحدد فيه شرطا ضروريا لينال طالب التصوف لقب "**المريد**": "لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن ما يريد[19].

يتضح من خلال هذا البحث المختصر عن الأخلاق أثر أبي مدين على ابن عربي و لكن إذا كان هذا الأخير بأخذ برأي الشيخ في أهمية الأخلاق المحمودة في التصوف باعتباره خلقا فإنه يضيف على أستاذه الشيء الكثير في مجال القيم، خاصة من الناحية الفلسفية مما ينم عن فيلسوف صوفي جاء لينطلق من فلسفة شيخه و قدوته، ومن المرتكزات النصية ليثبت بأنه ليس مجرد متأثر منفعل وإنما فعال تأثر وأبدع ومن إبداعات في هذا المجال تأليفه لكتاب أسماه " **تهذيب الأخلاق**" كما دون في الفتوحات المكية فلسفة أخلاقية أخذت من اليونان ومن نصوص القرآن ومن مناقب الصوفية بالإضافة إلى اجتهاداته، ومن ذلك على سبيل المثال أنه حاول أن يقدم تعريفا للأخلاق ما جاء فيه بأنها :" **حال النفس بفعل بها الإنسان أفعاله بلا روية و لا اختيار** " [20]، كما رأى بأن الناس مجبولون أكثر على الأخلاق المذمومة و غنه في أخلاقهم و طباعهم أصناف كما أن الأخلاق أنواع منها المتعدية ومنها غير المتعدية و المشتركة بمعنى أنها متعدية إلى الغير أو أنها ذاتية ولذاتها، أو تجمع بين كونها لذات العارف و متعدية بالفائدة أو بالمضرة على الغير[21].

ب- من حيث فكرة الأسماء و الصفات الإلهية:

يرى أبو مدين ومن بعده ابن عربي أن الوجود الإنساني وعالم الشهادة بصفة عامة هو يجسد القدرة الإلهية المطلقة، وتجليات متعددة مختلفة بتعدد واختلاف أسمائه الحسنى، فالوجود كله رحمة إلهية وإبداع الهي و جمال وجلال إلهيين وغير ذلك من المعاني التي تحملها أسماء الله، لهذا كانت إجابة أبي مدين في رؤيا، وفي حضرة البسطاني والغزالي عندما سئل عن مسرحياته بقوله:" بمسرحياته ظهرت حياتي، وبنور صفاته استنارت صفاتي.. "[22] ومعنى هذا الكلام المركز والمختصر نقرأه عند أبي عربي الذي يفسر كيفية خلق الموجودات حاملة للصفات و الأسماء الإلهية وذلك بقوله :" لما شاء الحق

سبحانه من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها وإن شئت قلت أن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر كله..أوجد العالم كله [23] فالعلم إذن هو تجسيد لأسماء الله بمعانيها و أحكامها، يقول لبن عربي :" الأسماء الحسنى ظهرت في العالم كله ظهورا لإخفاء به و حصلت فيه بآثارها وأحكامها " [24].

هذه الصفات والأسماء الإلهية الموجودة في العالم كله هي أيضا في الإنسان باعتباره صورة جامعة مختصرة للعالم، يقول ابن عربي في نص يفسر ما تحدث عنه أبو مدين من سر إلهي في الإنسان فيقول: "كنت كنزا مضفيا فإن أنصفت فهمت أن الإنسان هو الكون بأسره، من حيث ثمرته وهو سره من حيث إنفراده عنه، لأنه مرآة تحكي تجلي الحق بالعالم، بظهور أسمائه وصفاته"[25] ومن هنا إذا أدرك الإنسان حقيقة نفسه أدرك الإله فيه، وبالتالي يدرك ربه، لهذا كثيرا ما ردد أبن عربي مقولة:"**من عرف نفسه عرف ربه**"[26].

وعن معرفة وإدراك الأسماء الإلهية، بل والعمل على معايشة معانيها يقول أو مدين: "أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق، فالتعلق الشعور بمعنى الاسم والتخلق أن يقوم بك معنى الاســم" [27].

بمعنى أن علاقة الصوفي بالأسماء الإلهية علاقة إدراك معرفي قد يتم ذلك عقلا عند ابن عربي، ثم ممارسة معنى هذا الاسم، باعتباره أن المعرفة في التصوف يجب أن تكون ممارسة –أو التجلي بمعناه وتجسيده بأن يكون الإنسان مثلا عاملا تجسيدا لاسم الإله: "العادل، ثم في الأخير تأتي مرحلة الفناء الصوفي في الاسم الإلهي بحيث تتحول الذات الإنسانية إلى مرآة صافية مجلوة لا تعكس الإلهية، وهي المرحلة التي يتحقق فيها الاتصال بالله والابتعاد عن الخلق بفناء كلي.

هذا الفناء هو جزء من علم صوفي كشفي ثماره علوم وتجليات إلهية تعجز حروف اللغة المتداولة بين البشر على حمل معانيها، لهذا وصفها أبو مدين بأنها أسرار لا تذاع إلا لمن كان له باع في التصوف و كانت له قدم راسخة في مقام الفناء، يقول أبو مدين عن سره وأسراره هذه: "أسرار تستمد من البحار الإلهية

التي لا ينبغي بثها إلى غير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها ..."[28] وعن مقام الفناء وما يعطيه من العلوم التي يجب حجبها عن العامة وعن الفقهاء بصفة خاصة يقـول ابن عربي آخذا برأي شيخه وبرأي غيره من المتصوفـة الذين استفـادوا من درس "**الحـلاج**" فيقول: "وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلم فغوره بعيد والتلف فيه قريب" [29].

ج- الأثر من حيث الرمز الصوفي للحروف و من حيث خرق العوائد:

إن نظر الصوفية إلى اللغة على أنها تعجز على حمل معاني وحقائق علوم الكشوفات الإلهية ونظرتهم إلى ضرورة حجب عامة الناس وخاصة الفقهاء (أهل الظاهر) على ما تعطيه التجليات من معارف دفعهم إلى التخاطب بالرموز وبإشارات لا يفهمها من لم يدخل ميدان التصوف، وطالت رموزهم وألغازهم كل شيء حتى أعطوا اللغة بعدا رمزيا آخر غير الذي هي عليه، فاعتبروا حروفها عالما خاصا له مراتب و حقائق لا تدرك إلا كشفا.

وعن واحد من هذه الحروف، وهو حرب "**الباء**" يقول ابن عربي بأنه : "حرف من عالم الملك و الشهادة والقهر"[30] بمعنى أنه حرف يرمز برسمه إلى اشتراكه في وجوده في العالم الإلهي المطلق وفي الوجود المادي، فالباء كخط " **بـ**"يعني الفصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة والباء رمز الموجودات التي تقع في جزء الموجودات المادية التي في عالم الشهادة، وكذلك هي الحرف الذي أعطى انطلاقة ظهور الوجود باقترانه باسم الإله من خلال عبارة "**باسم الله**"، يقول ابن عربي عن حرف الباء وعن رمزيته الصوفية": بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميز العابد من المعبود، قيل للشبلي: "أنت الشبلي؟ فقال: "أنا النقطة التي تحت الباء وهو قولنا النقطة للتمييز بين العابد والمعبود "[31] لا يستدل ابن عربي هنا بقول الشبلي هذا فقط، وإنما يعود في الفتحات" وكذلك في كتاب الباء" إلى أبي مدين فيقول عنه في حديثه عن رمزية هذا الحرف:" وكان شيخنا وإمامنا أبو مدين يقول ما رأيت شيئا إلا رأيت الباء عليه مكتوب"[32]. بمعنى أن الباء رمز لحقيقة الموجود في وجوده أسفل العالمين: عالم الذات الإلهية وعالم الشهادة، فالباء رمز الموجودات التي وجدت باسم الإله وبأمره، ويبقى هذا الكلام على حد تعبير لبن عربي تأويلا عرفانيا لا يفهمه إلا الصوفي.

وهكذا فبالعلم الإلهي الذي يعطيه الكشف في مجال الأسماء والصفات الإلهية والسرية التي تحيط بهذا العلم بين المتصوفة وبرمزية لغتهم وتأويلاتهم الخاصة تلميح لمدى أثر أبي مدين في الفكر الصوفي لابن عربي والذي لا يقف عند هذا الحد، بل يمتد إلى مواقف وآراء كثيرة يكشف عنها ابن عربي نفسه في مؤلفاته سواء في اعتبار تصوف أبي مدين قدوة ونموذجا يجب أن يهتدي به، أو من خلال الاستشهاد، والاستدلال بآرائه و أقواله و مناقبه.

ومن بين ما يتحدث فيه ابن عربي عن أبي مدين مدى القدرة الخارقة للعادة التي يكتسبها الصوفي المحقق بحيث تصبح حواسه مثلا مروضة ومطوعة على إدراك ما يتجاوز عتبات الإدراك الحسي، سواء لحاسة البصر أو السمع أو غيرها وأكثر من هذا يمكن للصوفي حسب ابن عربي أن ينقل هذه القدرة الخارقة لغيره من الناس ممن هم مؤهلون لنيل الكشوفات الإلهية بحيث تصبح روحه أي روح الصوفي كمرآة لغيره يرى فيها بعين الصوفي أو يسمح بأذنه ما هو خارق للعادة، وهذا الأمر حدث فيما يرويه ابن عربي بن أبي مدين وولده في بجاية حيث يقول في هذا الشأن :" كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من مسوداء، وكان أبو مدين صاحب نظر فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول: أرى في البحر في موضع صفته كذا وكذا سفنا وقد جرى فيها كذا وكذا، فإذا كان بعد أيام، وتجيء تلك السفن إلى بجاية يوجد الأمر على ما قاله الصبي، فيقال للصبي : بماذا ترى؟ فيقول بعيني، ثم يقول لا إنما أراه بقلبي، ثم يقول لا إنما أراه بوالدي، إذا كان أبي حاضرا ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبركم به، وإذا غاب عني لا أرى شيئا من ذلك"[33].

يعلق ابن عربي على هذه الواقعة بأنها عادية في عالم المتصوفة، تحدث لأهل الكشف، ويستدل في ذلك بالحديث القدسي الذي كثيرا ما استشهد به المتصوفة على حدوث خوارق العادات، كما استخدم في القول بوحدة الوجود، ونص الحديث القدسي هو :"... **لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وكنت بصره الذي يبصر به** .." [34].

هذا الاتصال للكائن الحي (الصوفي) بالحي المطلق (الله) هو الذي جعل المتصوفة يعتقدون بأن علومهم تحمل الجديد باستمرار ماداموا على اتصال

بالمعين الذي لا ينضب، ولهذا أيضا كان ابن عربي يستدل بقول لأبي مدين يأمر فيه أصحابه بأن يجتهدوا في تحصيل العلم الجديد الذي لم يسبقوا إليه، وان لا يقلدوا فيمرون العلوم الكشفية أو الدينية عموما عن السابقتين، يقول ابن عربي: "وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا قيل له "**فلان عن فلان**" يقول: "ما نريد أن نأكل قديدا، هاتوا ائتوني بلحم طري، هذا قول فلان، أي شيء قلت أنت، ما خصك الله به من عطاياه من العلم الذي؟ أي حدثوا عن ربكم واتركوا فلانا وفلانا، فإن أولئك أكلوه لحما طريا والواهب لم يمت"[35].

5. تميز ابن عربي عن ابن مدين:

إن الإجابة على هذا السؤال تـكمن في:

1. لأن أبا مدين كرس جهده ووقته في تكوين مشايخ المتصوفة، وابن عربي من جملة من ينتهون إليه، في حين اهتم ابن عربي بالتصوف لذاته وشغله على هامش التصوف اهتمامه بالفلسفة ومختلف علوم عصره.

2. لم يخلف أبو مدين مدونات أو تواليف كما فعل ابن عربي وابن رشد في عصره والسبب في ذلك قد يعود إلى انه كان يتعمد عدم الكتابة وينهى حتى تلامذته من تدوين دروسه ونسخها، ويستنتج هذا الأمر من واقعة يرويها ابن قنفد القسنطيني عند التعريف بواحد من تلامذة أبي مدين وهو الفقيه "**أبو عبد الله بن حماد و الصنهاجي**" من قلعة بني حماد والذي يروي حضوره دروس أبي مدين ببجاية سنة 581هـ، فيقول: "وقيدت كلامه عليه أول يوم من غير أن أعلم أحد فلما كان اليوم الثاني قال لنا الشيخ: لا أريد أن تقيد عني شيئا مما أقوله في هذا الكتاب..."[36].

وسبب عدم تركه لمؤلفات وعدم السماح لتلامذته تدريس دروسه قد يعود إلى أمرين :

- **الأمر الأول:** قد يكون أبو مدين طبق حرفيا نصيحته لتلامذته بأن يسعوا إلى المعرفة ونيل الحقائق بأنفسهم من مصدرها الإلهي.
- **الأمر الثاني:** وهو الأرجح من أبي مدين في أن لا يقدم الدليل الذي قد يستخدم ضده في محاكمة له محتملة بفعل تربص الفقهاء به، وهو

الأمر الذي وقع مع ابن رشد وغيره، وكاد أن يقع لأبي مدين لو لم يوافيه الله أجله قبل الوصول إلى مراكش.

في حين لم يلزم ابن عربي، خلافا لأبي مدين، مكانا وواحدا يدرس فيه، فقد كان كثير الترحال والتجوال سواء عندما كان في المغرب أو عندما رحل إلى المشرق ثم انه من حيث التأليف عرف عنه غزارة الكتابة، ولو انه بالمشرق الإسلامي كان أكثر نشاط في هذا المجال، وربما يعود ذلك إلى خوفه في المغرب الإسلامي من وشاية فقهاء البلاط الموحدي، وكذلك إلى العلاقة التي لم تكن جيدة بالسلطان و لكن كل هذا لا يمنع من القول بأن ما كتبه في المغرب لا يخلو من جرأة ولا من نقد للسلطة الموحدية ممثلة في مذهبها، وخاصة فيما يتعلق بالإمامة وبعصمة "**المهدي ابن تومرت**" ولكن بطابع رمزي وهو ما نلمحه خاصة في كتابه: "**عنق مغرب**" والتدبيرات الإلهية في المملكة الإنسانية".

الخـــاتمة:

إن تأثير أبي مدين في ابن عربي واضح المعالم و بالرغم من أن الرجلين لم يلتقيا قط، ويبدو هذا الأثر واضحا من خلال أفكار أبي مدين الذي وجدناها مفصلة ومطورة لدى ابن عربي، أو من خلال تجربة أبي مدين الصوفية في حد ذاتها، والتي كان من خلالها شيخ الشيوخ لدى سلطان العارفين قدوته والنموذج الذي يحتذي به في التصوف، ويفتخر به في المشرق حيث كان يعتقد أن لا تصوف في المغرب.

لقد نقل ابن عربي من خلال تجربة أبي مدين، ومن خلال معايشته لفترة موحدية تعددت فيها المذاهب و عرفت فيها الفلسفة تطورا بلغ أوجه مع ابن رشد الذي حاول أن يجعل من فكر الغزالي متهافتا، ومعلوم أن الغزالي صاحب أشعرية "**ابن تومرت**" في المغرب والمؤثر في جل المتصوفة منذ العهد المرابطي، قلت لقد نقل ابن عربي إلى المشرق من خلال كل هذا فلسفة صوفية شكلت قاعدة لوحدة المذاهب على النمط الموحدي بل أراد بها حتى وحدة الأديان السماوية، متخذا مواقف كلامية وآراء فلسفية مختلفة ومتعددة المشارب، منظرا لتصوف فلسفي اعتقد في منهجه الكشفي أسمى المناهج لبلوغ درجة الإنسان الكامل أو درجة القطب التي بلغها أبو مدين ببجاية.

الهوامش:

[1]. يمكن الرجوع لكتاب "الوفيات" لابن قنفد القسنطيني، تحقيق عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، نان 1982م، ص297-298

[2]. عبد الوهاب بن منصور: "أعلام المغرب العربي" ج2، المطبعة الملكية، الرباط 1399هـ/1979م، ص15

[3]. الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2/1981م، ص56 .

[4]. أحمد بن مصطفى العلاوي :" المواد الغيثية الناشئة من الحكم "، ج1، المطبعة العلاوية مستغانم، الجزائر ط2/1989، ص16 و كذلك حسم الأمين: الموسوعة الإسلامية، ج3 دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1976، مادة أبو مدين، ص 198

[5]. الغبريني: "عنوان الدراية"، هامش 65 و كذلك العلاوي -أحمد بن مصطفى)، المرجع السابق)، ص16

[6]. ابن خلدون (عبد الرحمن) :المقدمةج2، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 584

[7]. ألفرد بل :" الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ص 379

[8]. أسين بلاديوس :ابن عربي حياته و مذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979، ص35

[9]. ابن عربي:" رسالة روح القدس في محاسبة النفس، قدمها بدوي طه علام، مطبعة عالم الفكر، القاهرة، ط1، 1409هـ/1989م وص125

[10]. الحنبلي (عبد الفلاح عبد الحي بن عباد)، شذرات الذهب، م2 ج4، ص300

[11]. الشعراني (عبد الوهاب)، الطبقات الكبرى، ج1، ص163.

[12]. ابن قنفد القسنطيني :أنس الفقير و عز الحقير، ص102، عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج2، ص16.

[13]. Osman Yahia :histoire et classification de l'œuvre de IBN Arabi .2ème, EDCNRS Damas 1964

[14]. ابن قنفد القسنطيني :أنس الفقير و عز الحقير، ص 18

[15]. ابن عربي :كتاب اصطلاحات الصوفية، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط1/1948، ص17

[16]. القشيري (عبد الكريم) :الرسالة القشيرية في علم التصوف، .دار الكتاب العربي، بيروت، ص127

[17]. النووي :صحيح مسلم، ج3 حديث عائشة أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل

[18]. ابن عربي :كتاب اصطلاحات الصوفية، ص 17

[19]. ابن عربي :رسالة روح القدس، ص56

[20]. ابن عربي: تهذيب الأخلاق تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة عالم الفكر والقاهرة، ط1/1990، ص12

[21]. ابن عربي :الفتوحات المكية، ج1 تحقيق عثمان يحي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2/1985، ص149 -150

[22]. ابن قنفد القسنطيني : أنس الفقير و عز الفقير، ص96

[23]. ابن عربي :فصوص الحكم: تحقيق أبو العلا عفيفي، ج1، دار الكتاب العربي بيروت ط1980/2، ص48-69

[24]. ابن عربي :" كتاب إنشاء الدوائر، مطبعة بريل، مدينة ليدن، ط1336/1 هـ، ص32

[25]. طلعت مراد بدر:ابن عربي الفيلسوف المفترى عليه، جملة عالم الفكر، الكويت م1، عدد1970/03، ص25

[26]. ابن عربي :كتاب التراجم، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ط1948/1م، ص26

[27]. ابن قنفد القسنطيني: المصدر السابق، ص 18

[28]. الشعراني :الطبقات الكبرى، ص 134

[29]. ابن عربي :كتاب الغناء في المشاهدة، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الذكن، ط1361/1 هـ، ص342

[30]. ابن عربي : الفتوحات المكية: ج1، ص321

[31]. ابن عربي :المصدر نفسه ج2/ط1975/1م، ص 134

[32]. ابن عربي :كتاب الباء المطبعة المنيرة بالأزهر ، القاهرة، ط1954/1م، ص04

[33]. ابن عربي : الفتوحات المكية :ج3، ص349

[34]. ابن عربي : المصدر نفسه ج3، ص349

[35]. ابن عربي :الفتوحات المكية، ج4 ص372.

[36]. ابن قنفد القسنطيني : انس الفقير و عز الحقير، ص 92